حقيقة إخوان الصفا من التاريخ إلى الأيديولوجيا

The truth of the IkhwanEssafa from history to ideology

حمدينة عبدالله*
hammadina.abdallah@cuniv-ak-tindouf.dz

يحياوي سماعيل
ismail.yehyaoui@univ-bechar.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/22 القبول:2022/04/16.
تاريخ النشر:2022/05/13

ملخص:إن رسائل إخوان الصفا هيأ عزر موسوعة فكرية عربية، وأقدم المصادر التي قامت عليها الفلسفات العربية في القرون الوسطى، لكن كتم مؤلفيها أسماءهم عن القارئ، واعتمادهم مبدأ السرية في نشاطهم، أثار الكثير من الجدل لدى الباحثين، خصوصا وأننا أنه لا نستطيع تصنيف مؤلفات ابن سينا والفارابي وغيرهما دون أن نأتي على ذكر فكر الإخوان وفلسفتهم لذلك فإن مسالة الفصل في حقيقتهم عمل أساسي لا مناص عنه، فمن هم إخوان الصفا؟ ما حقيقة حضورهم التاريخي ؟و هل المضامين المعرفية لرسائلهم معرفية تنويرية محضة أم أنها موجهة لخدمة غايات سياسية أبعد ؟

وفي سياق التعامل مع هكذا موضوع اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج التحليل النقدي ولأن طبيعة الموضوع تجمع بين المعرفي و التاريخي تكون المقاربة التاريخية عمل لا مناص منه، خصوصا و نحن أمام "جماعة" أثارت الاختلاف بين الباحثين بشكل لا مثيل له في تاريخ الفكر الإسلامي.

الكلمات المفتاحية:صفا؛ معرفي؛ اسماعيلي؛ سياسي؛ سرية ؛ إمامة.

Abstract :The messages(treatises)IkhiwanEssafa are the most prolific Arab intellectual encyclopedia, but, withholding their names from the reader, and their adoption of the principle of confidentiality in their activities, raised a lot of controversy among researchers.Therefore, knowing their truth is a fundamental and important work, so who are the IkhwanEssafa'? What is the truth of their historical existence? And are the cognitive contents of their messages purely enlightening, or are they directed to serve further political goals? In the context of dealing with such a topic, we relied in this study on the critical analysis method, and because of the nature of the topic that combines knowledge and history,the historical approach is an inevitable work, especially when we are facing a "group" that has stirred up controversy among researchers in an unprecedented way in the history of Islamic thought.

KeyWords:safa ; Cognitive; Ismaili; Political; Secrecy ; Imamate

*المؤلف المرسل

المقدمة:إن البحث في فكر إخوان الصفا يتطلب منا ،كمقاربة أولية ضرورية لمعرفة حقيقتهم و فهم الخطاب الذي تبنوه،تحديد الإطار الزماني و المكاني الذي تشكل فيه و بالتالي لا مناص لنا من معرفة الفترة التاريخية التي ألفوا فيها رسائلهم الموسومة بـ"رسائل إخوان الصفا و خلان الوفا"،خصوصا ونحن أمام جماعة من "المفكرين أو الدعاة" الذين فضلوا كتمان أسمائهم عن القارئ الأمر الذي أفسح المجال أن كثير من الفرضيات حول حقيقتهم و طبيعة الخطاب الذي تبنوه،ففي الوقت الذي يعتبرهم البعض فلاسفة أصحاب رسالة تنويرية يتجه آخرون إلى تصنيفهم ضمن فرق الشيعة الإسماعيلية و بالتالي فإن الرسائل التي كرسوا لها جهدا كبيرا لا يمكن أن تكون لمجرد التنوير أو الثورة الثقافية. و الواقع إن المطلع على رسائل إخوان الصفا لا يمكنه إلا أن يعترف بأنها أغزر مادة فلسفية ، وأقوم موسوعة فكرية عربية ، بل يمكن القول بأنها من أقدم المصادر التي قامت عليها الفلسفات العربية في القرون الوسطى، حتى أنه لا نستطيع تصنيف مؤلفات ابن سينا والفارابي والفلاسفة المتهرمسين دون أن نأتي على ذكر فكر الإخوان وفلسفتهم. ونحن و في سياق التعامل مع هكذاموضوع اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج التحليل النقدي ولأن طبيعة الموضوع تجمع بين المعرفي و التاريخي تكون المقاربة التاريخية عمل لا مناص منه،خصوصا و نحن أمام "جماعة" أثارت الاختلاف بين الباحثين بشكل لا مثيل له في تاريخ الفكر الإسلامي.
فمن هم إخوان الصفا؟ ما حقيقة حضورهم التاريخي ؟و هل المضامين المعرفية لرسائلهم أو خطابهم فلسفي علمي ذو أبعاد معرفية تنويرية محضة أم أنه موجه لخدمة غايات سياسية أبعد بالتالي فهو يخدم أيديولوجيا معينة ؟

يتجه بعض المهتمين بدراسة الفكر الإسلامي إلى رفض فكرة إدراج إخوان الصفا ضمن الفرق الشيعية، وهناك من يدرجهم ضمن الفلاسفة المنحرفين عن جادة الطريق الإسلامي باعتبار أنهم يؤسسون خطابهم على أفكار وتصورات لا تمت إلى الدين الحنيف بأية صلة (فروخ،1981،22)، في الوقت الذي يجعلهم آخرون فرقة تتبنى رؤية تقوم على وحدة الوجود وتركب التشيع كمنطلق تحتوي به التيارات والمذاهب المعارضة، والتي تعاني في ظل الحكم العباسي البؤس والحرمان وبالتالي فهي حركة تعبر عن عصر اشتدت فيه معاناة الفئات المضطهدة (مروة،1985،372-374). ونجد بعض الدارسين من يجعلهم فرقة ذات ميول شيعية محضة وأنها تمثل الجانب الشعبي في فلسفة الإسماعيلية (الجابري،1989،204). تحيلنا هذه الاتجاهات المختلفة والمتناقضة في البحث إلى إشكالية أساسية، فلا يمكن أن نتقدم في عملنا أكثر دونمحاولةالفصلفي مسألة الإنتماء، وإلا بقينا ندور في مجال مفتوح على كل الاحتمالات في عصر أقل ما يمكن أن نصفه به هو أنه عصر صراعات سياسية ومذهبية.

أصل التسمية: في البدء ينبغي الإشارة كمقاربة دلالية أنه ليس هناك معنى آخر مذكور خارج الرسائل يكشف لنا حقيقةتسمية"إخوان الصفا و خلان الوفا" سوى الحديث الذي دار بين شخصيات كليلة ودمنة والمستهل بطلب الحكيم "بيدبا" في قوله : "قد سمعت مثل المتحابين يقطع بينهما الخؤون والمحتال، فاضرب لي مثل

إخوان الصفا و كيف يكون تواصلهم واستماع بعضهم من بعض." هذا المعنى بالذات يشير إلى المضمون الذي يريد مؤلف أو مؤلفو الرسائل بثه كأسلوب للتعامل والتعاون بين أفراد جماعتهم والمتشيعين لمذهبهم.(ابن المقفع 132،1998)

وتذكر بعض المصادر بأن الشعوب الإسلامية قد عرفت العديد من "الأخويات" مثل تلك التي نجدها لدى الصوفية و الفرق الدرويشية، إذ نجدها تقوم على فكرة التضامن بين أفراد جماعاتهم و تأسيس تعاملاتهم على العدل والمساواة و الأخوة (فريد حجاب، 1982، 25) و هذا يعني أن "الأخويات" ليس في حد ذاتها مذهباً أو اتجاها سياسيا بقدر ما هي صفة تُحمل على أتباع مذهب ما، الأمر الذي يفسح المجال أمام إعادة النظر في الاعتقاد القائل بأن إخوان الصفا إسم لتنظيم مذهبي و سياسي متميز عن الإسماعيلية، و هذا ما سنحاول تفنيده في الفصل القادم في معرض حديثنا عن انتمائهم السياسي.

فرضيات متباينة : لا غرو أن الحديث عن جماعة مثل إخوان الصفا يضعنا أمام بعض الصعوبات المتعددة الأبعاد و التي رغم ذلك لا بد من الخوض فيها. فلم يكن ما يصعب من مهمة التعرف عليهم وعلى انتاجهم وإنتمائهم وتوجهاتهم والزمان الذي عاشوا فيه راجع إلى الغموض والسرية فحسب، بل إننا لا نكاد نعثر فيما وصلنا من مصادر تاريخية سوى على معطيات وإشارات مقتضبة لا تقدم لنا شيئاً يمكن أن يفيدنا في تحديد العصر والمكان الذي نشأوا فيه، عدا ما وصلنا عن أبي حيان التوحيدي بعد المساءلة التي تعرض لها من جانب وزير صمصام الدولة البويهي ، ففي إجابة له عن سؤال طرحه عليه يفيدنا التوحيدي بأن إخوان الصفا جماعة كانت بالبصرة إمتازت بمعرفتها " بأصناف العلم و أنواع الصناعة ... تألفت بالعِشرة ، تصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة. فوضعوا مذهباً وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها وأفردوا لها فهرساً سموه رسائل إخوان الصفا و كتموا فيها أسمائهم و بثوها في الورَّاقين ووهبوها الناس" (التوحيدي،3،1948-5)، و قد كان ذلك كما ذكر أبو حيان التوحيدي في حدود سنة 373 هـ وعلى العموم فإن العديد من الدراسات الحديثة إضافة إلى قلتها فهي إما أن تعتمد على نص التوحيدي أو ما نقله عنه القفطي ، فتلجأ إلى بتره وإفراغه من محتواه التاريخي معتبرة إخوان الصفا ظاهرة مرتبطة بالقرن الرابع بعد الهجرة (العاشر للميلاد) (كوربان،1983،227) ، وأنهم نشأوا بالبصرة على غرار ما جاء في المصدر المذكور، وإما أنها تلجأ إلى عملية التحليل والتركيب المنطقي لبعض المقاطع من رسائل الإخوان من أجل الخروج بإستنتاجات قد لا تخلو هي الأخرى من التسرع والتعسف، فلا تخرج -كما فعل المستشرق كازانوفا- إلاَّ بأحكام تحكيمية غير مبررة لا تاريخياً و لا فلسفياً.(فريد حجاب،1982 ،ص42،43)

ونجد فريقاً آخر من الدارسين و المحققين يعتمدون على ترجيح فرضيات بناءا على تبريرات أكثر معقولية مستندين في ذلك على جملة من المعطيات الفلسفية و الإجتماعيةمحاولين الربط بين إنتاج إخوان الصفا الموسوعي والأحداث التاريخية التي يمكن أن تكون قد تزامنت أو سبقت ظهور هذه الفرقة.

ويستند هؤلاء إلى جملة من المحددات و العوامل نذكر من بينها :
ـ التفكك السياسي لدولة الخلافة: فقد شهد القرن الرابع للهجرة إنقسام دولة الخلافة العباسية إلى دويلات و عمالات متصارعة لا ترتبط بمركز الخلافة إلا إسمياً. فمنذ مطلع هذا القرن كان التمزق و التفكك الذي أصاب دولة الخلافة قد وصل إلى مداه، فكان الحكم – في مركز الخلافة العباسية – لبني بويه وفي الأندلس للأمويين وفي إفريقيا للعبيديين وفي مصر للإخشيديين وفي حلب للحمدانيين و في الجزيرة للشيبانيين وفي عمان والبحرين للقرامطة أما في خراسان فقد كانت السلطة بيد الساسانيين، وفي هذا الوضع المرتبك كانت كل عمالة أمارة تدعو لنفسها وتبث الدعاة لجذب الأتباع، وقد كان المطلب الأساسي لكل أسرة أو جماعة الوصول إلى مركز السلطة والسيطرة بتوظيف كل الوسائل والطرق للكيد بمن بيده السلطان.(فريد حجاب، 1982،ص34،33)

ـ ظهور الترجمات وانتشار الأفكار الفلسفية اليونانية ذات التوجه والميول الهرمسية؛ كالأفلاطونية المحدثة و انتشار المانوية و غيرها من الفلسفات المتعددة المصادر والتوجهات، وقد شهد القرن الرابع للهجرة انقسامات وصراعات دينية وعرقية واجتماعية نتيجة تعدد المذاهب والأديان والانتماءات الجنسية والعرقية والقومية في ظل الخلافة العباسية، فكان مشروع الإخوان يكمن في إذابة كل هذه الاختلافات وحل هذه الصراعات من خلال مذهب يحتوي كل هذه الأديان والعقائد والانتماءات على غرار ما فعلت المانوية مثلاً، حين جمعت بين المجوسية والمسيحية أو كما فعل السيخ في الهند حيث ألف مذهبهم بين الهندوسية والاسلام.(عمر،1985، 379)

وبالإضافة إلى ذلك يعتقد البعض بأن ما ساعد على انتشار الفكر الفلسفي لإخوان الصفا هو ما لقيه هؤلاء الإخوان من تسامح فكري في ظل حكم الدولة البويهية(*LAOUST، 1979، 184*) خصوصاً مع الحركات ذات التوجه الإسماعيلي ، علماً بأن البويهيون كانوا من الشيعة الزيدية. (فريد حجاب، 33،1982. 37)

وذهب بعض الباحثين من ذوي الإختصاص . الإسماعيليون بشكل خاص . إلى الاعتقاد بأن إخوان الصفا هم دعاة الإمام المستور أحمد بن عبد الله بن إسماعيل بن جعفر الصادق (LAOUST ،1979، 184-185)والذي يعتقد أن ولادته كانت في نهاية القرن الثاني للهجرة حوالي سنة 179هـ بعسكر مكرم، و يعتبرونه إضافة إلى ذلك واضع الرسائل بعد ما لاحظه من رواج البدع الفلسفية في عهد الخليفة العباسي المأمون، وقد انتقل الإمام أحمد بن عبد الله مع والده إلى سلمية فعاش هناك متخفيا بزي التجار يبث دعاته في كل أرجاء البلاد متخذاً من هذه المدينة مركزاً لدعوته. (إخوان الصفا،1984، ص7 ، 8)

هذه جملة من آراء الباحثين وهي لا تختزل كل وجهات النظر كما أن دراسة إخوان الصفا والحركات الإسماعيلية والحركات الباطنية بوجه عام ما زالت مفتوحة للنقاش و إعادة النظر، غير أن ما يهمنا هنا هو بيان الطابع الإشكالي

للموضوع و لنستفيد . دون اعتبار هذه الدراسات مسلمات جاهزة . من الأخطاء التي غالباً ما تأتي من أولئك الباحثين الذين تعودوا إما النقل دون فحص و تمحيص أو الاندفاع الحماسي أو التخمين الذاتي الذي لا يؤدي سوى إلى نتائج إسقاطية .

مداخلة : الواقع أن اعتماد نص التوحيدي لمعرفة عصر إخوان الصفا والمكان الذي نشأؤا فيه . رغم ما يمثله من قيمة معرفية أو تاريخية بالنسبة للبعض . فإنه مع ذلك لا يوصلنا حول هذه المسألة بالذات سوى إلى استنتاجات ظنية هزيلة ، فالنص في حد ذاته لا يحمل أية دلالة تحدد زمن ظهورهم بالقرن الرابع بعد الهجرة ، ذلك أن التوحيدي نفسه تعرض لهم في حديثه بصيغة الماضي، أضف إلى ذلك أنه حين سُئل عن بن رفاعة فالواضح في جوابه بأن هذا الأخير قد عرف جماعة ينتمون إلى إخوان الصفا ، و"صحبهم وخدمهم" (التوحيدي،45،1948)غير أن ذلك لا يعني بأن هؤلاء الذين ذكرهم التوحيدي هم مؤسسي الجماعة خصوصاً . وهذا يبدو من خلال كلامه . أن بن رفاعة هذا لم يكن من القياديين، يدل على ذلك قوله "صحبهم وخدمهم" فإذا كان الأمر كذلك فنحن إذن لن نعرف موقعه في الترتيب الهرمي لهذه الجماعة، و لن يكون من اليسير تحديد موقع هؤلاء من إخوان الصفا المؤسسين ، وهم الموصوفون في الرسائل بـ"الخواص من الحكماء الذين هم الراسخون في العلم " الـ" مطلعون على حقائق جميع الأسرار والمرموزات...يخفون عن الأشرار والأجلاف" (إخوان الصفا،529،1992 . 530) ومهما يكن موقف الدولة البويهية من الشيعة غير الزيدية فالواضح أن إخوان الصفا يخالفونهم في قضايا عديدة خصوصا حين يتعلق الأمر بمسألة الإمام .

أما بالنسبة للمكان الذي مارسوا فيه نشاطهم فليس في النص الوارد على لسان التوحيدي أي دليل على أن هذه الجماعة نشأت بالبصرة ، بل ربما أن ما يمكن ترجيحه هنا هو أن زيد بن رفاعة عرف جماعة تسمى "إخوان الصفا" وبما أن هذه الجماعة ليست بالضرورة من المؤسسين ، فليس هناك ما يدعو إلى أن مركزهم البصرة.علماً بان لإخوان الصفا دعاة و مجالس في كل أنحاء البلاد و من كل الفئات.(إخوان الصفا،1992 ،421)

ولعل اختلاف المذاهب و تعدد الفرق ظاهرة أشار إليها إخوان الصفا في مواضع كثيرة من رسائلهم، الأمر الذي يوحي بأنهم عاشوا في فترة شهدت بالفعل تعدد العقائد و التوجهات الأيديولوجية و السياسية، فترة طبعها التوتر والصراعات، لكن أن يكون ذلك راجع إلى القرن الرابع للهجرة قول لا مبرر له إذا علمنا أن الشعوب الاسلامية لم تكن لتنتظر هذه الفترة بالذات ليصيبها ما أصابها من صراعات و تصدعات سياسية و أيديولوجية ومذهبية ، ذلك أنه ومنذ عهد الرشيد – والذي غالبا ما يوصف بالذهبي – وجدت دولة الخلافة العباسية نفسها في منعطف خطير بدأ بتقسيم الدولة على أبنائه المأمون و الأمين والمؤمن، ثم إن توجه العباسيين في هذا العهد نحو الأقاليم الشرقية (بروكلمان،199،2002)سرعان ما أدى إلى انفصال الأقاليم الغربية، فنشأت دولة الأغالبة في شمال أفريقيا (200هـ) وكان قبل ذلك "يحي بن عبد الله " قد ثار على هارون في بلاد "الديلم" و انتصر له أهل اليمن وأنشأ

أخوه "إدريس" دولة الأدارسة في المغرب. (إبراهيم حسن، 1964، 33) هذا بالنسبة للحركات الشيعية العلوية،فإذا أضفنا إلى ذلك حركات الشعوبية والزندقة التي شملت العصرين الأموي والعباسي وامتدت إلى النصف الأول من القرن الثالث للهجرة، أمكننا إذن، وبعد ما سبق ذكره، أن نستخلص، بأنه لا يمكن ربط نشأة إخوان الصفا بهذا العصر أو ذاك لأن التفكك السياسي، حسب ما تثبته المصادر، ظاهرة تمتد إلى ما قبل بداية القرن الثالث.

أما على المستوى الثقافي، فالواضح أن حركة الترجمة التي يعزى إليها انتشار الفلسفات اليونانية و الموروث الفارسي القديم، قد عرفت نشاطا واسعا خلال القرن الثالث للهجرة، فقد أنشأ الخليفة المأمون "بيت الحكمة" سنة217هـ((كوربان،1983،57) وهذه الخطوة بالذات وإن لم تكن بداية للترجمات، فإنها تفند تلك الفرضيات التي تربط ظهور الإخوان بالقرن الرابع، الأمر الذي يفتح المجال أما فرضيات أخرى، أي تلك التي تؤرخ لظهورهم بالقرن الثالث.(فريد حجاب،38،1982)

إخوان الصفا ظاهرة عصر: فلنعد بعد هذا العرض المكثف لبعض وجهات النظر حول عصر ومكان ظهور إخوان الصفا إلى مرحلة الفصل،بالتأكيد ليس فصلاً نهائياً للمسألة ، بل وجهة نظر نرجحها لما لدينا من القرائن الفلسفية والتاريخية.

ويعلن إخوان الصفا في مواضع متعددة من رسائلهم بأنهم في دور الستر، فإمامهم المنتظر ليس مختفياً كما يعتقد بعض المتشيعين، " بل هو ظاهر بين ظهرانيهم " (إخوان الصفا،1992، 5 ، 351، 352) وإنما – كما يصرحون– "بغلبة أهل الباطل يخفى أهل الحق ويخفى الأمر، ويوضع دور الستر" (إخوان الصفا،1984، 499)، و نجدهم في موضع آخر يذكرون بأنهم قد أقاموا لأنفسهم دعاة في كل أرجاء الأمة وحسب كل طبقة وفئة يدعون إليهم ويبشرون بظهور أمرهم وخروج مهديهم (إخوان الصفا،1984، 526)، فإذا علمنا أن انتهاء دور الستر يرتبط بقيام الدولة الفاطمية سنة 296 هـ وجب أن نستنتج أن ظهورهم كان قبل التاريخ المتعارف عليه أي ذلك الذي أورده التوحيدي .

ولما كان تأليف الرسائل .كما سبق و أن أشرنا يتطلب وقتاً، فإننا نقدر زمان بدأ التأليف بنهاية القرن الثالث الهجري على أقل تقدير ، ويبدوا أيضاً أن هناك رسائل أو مقاطع وعبارات أضيفت في وقت متأخر الأمر الذي يفسر إيرادهم أبيات لابن الرومي المتوفى سنة283 هـ وأخرى لأبي الفتح البستي المتوفي نحو 400 هـ (فروخ،1981 ، 18 -19، 34- 35.).

والآن فلنلق بعض الأضواء على العصر الذي نرجح أنه عصر ظهور إخوان الصفا. لقد لجأ أئمة الإسماعيلية إلى نشر دعوتهم في الخفاء بعدما لاقوه من تشديد الخناق عليهم من جانب الخلفاء العباسيين الذين كانوا أوقعوا بمحمد النفس الزكية و بأخيه ابراهيم سنة 145هـ ، وقتلوا الحسين بن علي بن الحسن في موقعة فخ سنة 169هـ، الأمر

الذي ترك أثراً عميقاً في أنفس الشيعة ففر نتيجة لهذه المطاردة و التقتيل الذي أصاب العلويين . يحي بن عبد الله صاحب الديلم وأخوه إدريس بن عبد الله . فلم يجد الأئمة الإسماعيليون بداً من الاستتار، وقد اتخذوا من مدينة سلمية ببلاد الشام مركزا لنشر دعوتهم و عهدوها إلى كبار دعاتهم في كل أنحاء البلاد الإسلامية، وكان يطلق عليهم في هذا الدور أي دور الستر تسمية نواب الأئمة أو الحجج (إبراهيم حسن،40،39،1964) .

ويذكر المؤرخ اليمني إدريس عمار الدين المتوفي سنة 872هـ في المجلد الرابع من كتابه "عيون الأخبار" بأن الإمام أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق قام بأمر الإمامة وبث دعاته من "سلمية" واتصل به الدعاة ودعوا إليه وقد أخفوا مقامه وكتموا اسمه، " وكان المأمون حين احتال على "علي بن موسى الرضا بن جعفر" ظن أن أمر الله قد انقطع و حجته قد ارتفعت ، فحين ظن المأمون العباسي ذلك الظن ووهم ذلك الوهم سعى في تبديل شريعة محمد و تغييرها ، وأن يرد الناس إلى الفلسفة و علم اليونانيين، فخشي الإمام أن يميل الناس إلى ما زخرف المأمون عن شريعة جده ، فألف رسائل إخوان الصفا(إخوان الصفا،بدون،12).

ويؤكد مؤلف "عيون الأخبار" أيضاً أن الإمام أحمد ألف الرسائل وجمع فيها أنواع العلوم الفلسفية والهندسية و جعل " الرسالة الجامعة " تلخيصا لها وبيان المراد منها لخلصاء شيعته و خيرة خاصته. وقد ألفها " لتقوم الحجة على المأمون وأتباعه حين انحرفوا عن علم النبوة. " (إخوان الصفا،1983، 13)

وقال السيد غلام أحمد القادياني في رسالة " العسل المصفى في تحقيق اسم مصنف رسائل إخوان الصفاء " ما يلي : "ولما خشي السيد (أحمد بن عبد الله) أن يزيغ المسلمون عن الشريعة المحمدية إلى علوم الفلسفة، ألف رسائل إخوان الصفاء و خلان الوفاء وجمع فيها من العلوم والحكمة والمعارف الإلهية والفلسفية و الشريعة (تامر،1983،97).

ومما يدعم اختيار مدينة سلمية بسوريا مركزاً لدعوة إخوان الصفا كونها بعيدة عن مركز الخلافة العباسية، الأمر الذي يجعل الأئمة في مأمن من عيون العباسيين وبطشهم ، فكانت الدعوة تتم خارج سلمية أي في بغداد والبصرة وغيرها من الحواضر الإسلامية القريبة من مقر الخلافة وهو ما يفسر ما ذكره التوحيدي، وهي خطة اتبعتها التيارات الباطنية الإسماعيلية بشكل خاص .

والحقيقة أنه لا يمكن تلافي الاختلاف الواقع بين المحققين والمهتمين بدراسة رسائل إخوان الصفا والفلسفات الباطنية بشكل عام لما يميزها من التكتم والسرية ، فقد اعتقد البعض أنها من تأليف تلك المجموعة من المفكرين الذين ذكرهم التوحيدي وهم :" أبو سليمان محمد بن معشر البتي ويعرف بالمقدس، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، وأبو أحمد المهرجاني وأبو الحسن العوفي وغيرهم..." ((التوحيدي،1948، 5-7)) أما المفكرين الإسماعيليين فيميل أغلبهم إلى القول بأنها من تأليف الأئمة الاسماعيليين في عهد الخليفة العباسي المأمون.

لقد أشرنا سابقا إلى أن إخوان الصفا حركة ظهرت مع نهاية القرن الثالث للهجرة ، وهذا بعد أن ربطنا ظهورها بالحركات الباطنية الإسماعيلية، و قد وصلنا إلى أن أئمة دور الستر بعد أن اتخذوا سلمية مركزاً لنشر دعوتهم وبعد أن علمنا أن الجماعة التي وصف التوحيدي أعضائها بـ "إخوان الصفا" ليسوا من المؤسسين ولا يعرف موقعهم في الترتيب الهرمي للإخوان ، فإنه يكون من اليسير القول بأن الأشخاص الواردة أسماؤهم ربما كانوا مجرد دعاة يعقدون مجالسهم السرية بإسم إخوان الصفا،ولا نحن ننفي مع ذلك أن يكونوا من المؤلفين، خصوصاً إذا علمنا أن الرسائل كانت عمل برنامجي بعيد الأمد . الأمر الذي يجعلنا نرجح أنها ألفت خلال فترة طويلة من الزمن ، فطابعها الموسوعي والتنظيم المحكم الذي امتازت به يدفعنا إلى الاعتقاد بأنها ليست من تأليف شخص واحد و أنه لابد أن تكون قد استغرقت وقتاً قد يتجاوز القرن الرابع للهجرة.

– البعد السياسي للرسائل : يفترض بعض المهتمين برسائل إخوان الصفا أنها مشروع ثقافي تنويري (إسماعيل عبد الرزاق، 1998 ، 108) تعليمي تربوي لا يصبو إلى أية غاية سياسية.لكن افترض كهذا لا يفسر لنا حضور تلك المفاهيم والمقاطع التي يعلن فيها إخوان الصفا بأنهم في انتظار دورهم وإمامهم لإقامة دولة أهل الخير، كما لا نجد تفسيرا للجهد الكبير الذي بذلوه والتنظيم المحكم الذي أسسوا علية دعوتهم، ولمشروع رسائلهم الموسوعي الضخم الذي نعتقد أنه استغرق أكثر من قرن من الزمن لإنجازه.

فأمام مشروع كهذا – و بما يتضمنه من تنظيم و أساليب في الإقناع – هل يمكن القول أن كل هذا لمجرد التربية والتنوير أو من أجل إقامة حياة روحية متعالية عن كل ما هو سياسي ؟

– يمكن تصنيف الدراسات التي تنفي و جود غايات و أهداف سياسية لخطاب إخوان الصفا إلى ثلاثة اتجاهات:

الأول ويستند إلى التحليل الفلسفي للرسائل مستخلصاً أنها ذات طابع تنويري تثقيفي تربوي محض، فمضمون دعوتهم يكمن في تبني"رسالة معرفية للجمع ببين الحكمة والشريعة وإصلاح الثانية بالأولى ." (إسماعيل عبد الرزاق، 1998 ، 67) وأمام تلك المفاهيم المقولات التي هي من صميم الجهاز المفاهيمي للفكر السياسي الشيعي كآل البيت والأئمة ودور الستر والولاية...الخ فإن هذا التوجه في البحث يعزيها إلى أن إخوان الصفا كانوا يتبنون انشغالات الفئات المضطهد، وبالتالي فلم يكن دفعاهم عن العلويين ورفع شعاراتهم إلا من باب الإنصاف والعدالة والدفاع عن الحق، دون أن يعني ذلك أنهم علويين.

الواقع أن هذا الرأي لا يرقى إلى مستوى الدقة واليقين الذي يدعيه، ذلك أنه من الواضح أن صاحبه لم يطلع على رسائل الإخوان بما فيه الكفاية، الأمر جعله يحمل خطابهم تأويلات مبنية على رؤية مسبقة يبدو أنه كونها عنهم منذ بداية بحثه، فعوض أن يتساءل عن انتمائهم المذهبي والسياسي يكتفي بالتسليم بأنهم لا ينتمون لأي اتجاه، ليواصل العمل على فرضيته.يؤكد ما قلناه التفسير الذي يقدمه لخطاب الإخوان الموجه إلى المتشيعين والذي يقولون فيه :" ومما يجمعنا أيها الأخ البار الرحيم محبة نبينا، عليه السلام، وأهل بيت نبيه الطاهرين، و ولاية أمير المؤمنين، على بن أبي طالب خير الوصيين، صلوات الله عليهم أجمعين." (صفا، 69،68،1982)فهذا الخطاب لا يشي بتشيع أو عدم تشيع الإخوان إذا اكتفينا بالنظر إليه هكذا مبتورا من السياق العام و دون مراعاة المعطيات الاجتماعية والتاريخية والملابسات التي تكون و تشكل ضمنها تراث إخوان الصفا.

والرأي الثاني، وهو الذي يرجع ظهور إخوان الصفا إلى القرن الرابع للهجرة(حسين مروة مثلاً)، معتبراً إياهم جماعة ظهرت بعد الحركات الباطنية الإسماعيلية بنحو قرن من الزمن، فتأثروا بأفكارهم فكان مضمون الرسائل نتيجة وانعكاس نظري للتجربة الإسماعيلية الناجحة (مروة،363،1985 ، 364).والواقع أن ما وقع فيه صاحب هذا الرأي ناتج عن سوء تقدير لزمن ظهور إخوان الصفا، وهو ما أدى به إلى تقديم السابق على اللاحق، والأصوب هو أن تجربة الإسماعيلية كانت استمرارا وتتويجا لمجهودات إخوان الصفا، خصوصا وقد حددنا زمن نشأتهم بالقرن الثالث.

أما الاتجاه الثالث، والذي يأخذ منحى أكثر معقولية، فلا ينظر إلى تراث الإخوان كمنظومة من القيم والأفكار المتعالية عن السياسة وعن ملابسات التاريخ، بل يسعى إلى فهم واستيعاب مشروعهم ضمن المجال السياسي والاجتماعي الذي أنتجه، نقصد بذلك أيديولوجيا السلطة العباسية (الجابري ،363،1989 ، 364)

هكذا فإن المطلع على رسائل إخوان الصفا لا يمكنه إلا أن يعترف بأنها بالفعل "...أغزر مادة فلسفية ، وأقوم موسوعة فكرية عربية..." (تامر ،1983، 92)، وبالإضافة إلى ذلك فإنه يمكن القول بأنها من أقدم المصادر التي قامت عليها الفلسفات العربية في القرون الوسطى، ولعلنا لا نستطيع تصنيف مؤلفات ابن سينا والفارابي والفلاسفة المتهرمسين دون أن نأتي على ذكر فكر الإخوان وفلسفتهم. لكن الأمر الذي يجب ألا نغفله هو أنها لم تكن تتميز بالموسوعية فحسب، وإنما الأهم من كل هذا هو الترتيب الذي جاءت عليه والغاية من هذا الترتيب ، فعلى ما يبدو فان إخوان الصفا كانوا مدركين إدراكا تاما لخطة العمل التى بنوا عليها كتاباتهم، فهم لا يدعون القارئ إلى ضرورة قراءة الرسائل فحسب، وإنما هو مطالب بقراءتها من أولها إلى آخرها (إخوان الصفا،1984،327،328)، وذلك "على الترتيب المبين في الفهرست" (إخوان الصفا،1992، 27،60). ولما كانت الغاية القصوى حسب ما يعلنون كامنة في الرسائل الناموسية الإلهية، فقد جعلوها مؤسسة على سابقتها أي "الجسمانية الطبيعية" وأسسوا هذه الأخيرة على "الرياضية التعليمية" والبحث في العدد وانتظام الأشياء وفق الغاية التي أعلنوها عن وعي منهم ، وهي بيان مطابقة الموجودات لترتيب العدد، وأن عالم الإنسان الذي هو "عالم صغير" مطابق لنظام الموجودات (إخوان

الصفا،157،158،225)، وفي ذلك غاية أبعد وهي إقامة الحجة على النظام الذي يتصورونه، ثم يجعلون ذلك موافقاً لتسلسل مراتب الوجود في مدينة أهل الخير، والتي يبدو أن نظرية الفيض تخدمها و تقدم الأساس الفلسفي لها،ولكون أيديولوجيا الإمامة عند الإخوان لا تنفصل عن المضمون الإبيستيمولوجي لخطابهم، فقد لزم عن ذلك أننا مطالبون كخطوة أولية باستيعاب رسائلهم،لا باعتبارها تحمل ذلك الكم من المعارف والقيم، ولكن باعتبارها نسق من المفاهيم و الفلسفات الموجهة نحو غاية معينة لا تخرج عن انشغالات الشيعة في عصر اشتدت فيه الصراعات السياسية و تعددت فيه المذاهب الدينية والفلسفية. والحقيقة أنه *وإن كانتهذه الرسائل في ظاهرها لا تهتم بالجانب السياسي إلا في جزء يسير منها، فإنها لا تخلو، رغم ذلك من صفة البرنامج السياسي إلا بالنسبة لغير المختص أو حين نتعامل معها بوصفها حقول معرفية متباينة، بل إنه يمكن الافتراض بأن غياب هذا الجانب أي عدم حضوره بشكل مباشر هو في حد ذاته جزء من "استراتيجية" تمثل هي الأخرى موقفاً سياسياً، له دلالته الأيديولوجية والتاريخية، في زمن اشتد فيه الخناق على الحركات "العلوية" المعارضة.*

أيديولوجيا الإمامة و ميراث النبوة: لقد حددنا زمن ظهور جماعة إخوان الصفا بمنتصف القرن الثالث للهجرة، وقلنا بأن نشاطهم استمر إلى ما بعد القرن الرابع للهجرة مستندين في ذلك على افتراض بنيناه على بعض المصادر الإسماعيلية التي تربط الإخوان بأئمة دور الستر، ولكن عملنا سوف يظل مبتورا وغير مكتمل إذا ما اكتفينا بمجرد النقل دون نقد وتمحيص على حد تعبير ابن خلدون، ذلك أن المسألة ليست بهذه البساطة فهي تفتقر إلى الدلائل الفلسفية والتاريخية وفي حاجة إلى مقاربات أكثر دقة وتخصص مع الحركات والمذاهب التي عرفها عصر الإخوان، خصوصا إذا علمنا أن فرقا كثيرة ركبت التشيع لا كعقيدة وانتماء بقدر ما اتخذته وسيلة لبلوغ غايات سياسية أو اجتماعية معينة. من هنا رأينا أنه من الضروري الإجابة عن جملة من التساؤلات التي من شأنها أن تقربنا أكثر فأكثر من حقيقة الإخوان: فضمن أي اتجاه يمكن تصنيف إخوان الصفا ؟ (سامي النشار،273،1996) هل هم حقاً من الشيعة وما حدود وأوجه المقاربة بينهم وبين فرق الشيعية التي عرفها العصر العباسي ؟

الحقيقة أنه لا يمكن الخروج بأية استنتاجات بصدد الانتماء السياسي لإخوان الصفا دون الرجوع إلى مضمون الرسائل باعتبارها المصدر الأساسي الذي يمكن أن يكشف ضمناً أو صراحة ميولهم السياسية، ورؤاهم واعتقاداتهم. وإن كان هناك من لا يرتضي اعتماد التحليل المنطقي (السيميائي) لخطابهم باعتبار أنهم يصرحون في غير ما مناسبة أنهم يستعملون الإشارات والرموز (فروخ،22،21،1981)،فإن ذلك لا يمنع من أن هناك معاني ومفاهيم مشتركة يمكن استيعاب مضامينها الدينية والسياسية من خلال ربطها بالتطورات التاريخية التي مر بها المجتمع الإسلامي، خصوصاً فيما يتعلق منها بالقرن الثالث للهجرة، وإذا استحضرنا الجهاز المفاهيمي الذي يقوم عليه الفكر الشيعي استطعنا أن نكشف عن نقاط مشتركة بين إخوان الصفا والفكر السياسي الشيعي الذي يشتد انفصاله عن الفكر السني بشكل واضح وصريح عندما يتعلق الأمر بمشكلة الخلافة، والتي لا يمكن فصلها عند الشيعة بكل طوائفها

وانقساماتها عن مفهومي الإمام والإمامة من جهة، وعن مفهوم النص أي طبيعة العلاقة بين الظاهر والباطن من جهة أخرى.

وتجدر الإشارة كمقاربة أولية، بأنه إذا جاز لنا اختزال المفاهيم التي يقوم عليها الفكر الشيعي عموماً، فإننا نستطيع القول بأنها تتمحور من جهة حول ثنائية الشريعة والحقيقة ويقابلها على مستوى فهم النص البياني الظاهر والباطن، والمفهوم الثاني مرتبط بمشكلة الخلافة وصفات الخليفة والتي غالباً ما طرحت باسم الإمامة التي لا تنفصل في جوهرها عن مفهوم الولاية ، إذ أن دور الولي هو دور الإمام الذي يعقب النبي ، والذي يتخذ صفة المعرَّف بأسرار العقيدة، والكشف عن المعنى الباطن للوحي الذي يقابله المعنى الظاهر أو الشريعة، فإذا تحقق التوازن بين الظاهر والباطن فنكون إزاء الشيعة الإماميةالإثناعشرية وإلى حد ما الشيعة الإسماعيلية ، أما إذا طغى الباطن عن الظاهر فنكون أمام الاتجاهات المتطرفة من الإسماعيلية كالتي عرفتها ألموت (كوربان،68،1983، 80 . 81).

لقد أعلن الإخوان في غير ما موضع أنهم مسلمون موحدونرغم ميلهم إلى توحيد كل الديانات السماوية في إطار الفلسفة، كما أن ميلهم إلى توحيد كل العقائد والمذاهب لم يدفعهم إلى تبني القيم والأفكار المتناقضة للدين الإسلامي "الشيعي الإسماعيلي" منه على الأقل، ففي الوقت الذي يدافعون فيه عما سموه عقيدة إخوان الصفا نجدهم يدحضون ويتبرؤون من العديد من الآراء والعقائد المناوئة لأصول العقيدة الإسلامية كالمانوية التي تقوم على فكرة وجود إلهين. كما ينتقدون فكرة الثالوث المقدس وبعض الأفكار اليهودية الفاسدة. وحتى حين يتعلق الأمر بتلك الفرق الباطنية المتطرفة. كإسماعيلية الموت مثلاً، والتي غالت في تأليه بعض الأولياء والخلفاء أحياناً ووصلت في غلوها إلى حد إغفال الشريعة وتحريفها، فنقضت بذلك أركان الدين من صلاة وصوم وحج.. (كوربان،160،1983)، فإننا لا نجد فيما هو معلن في الرسائل ما يوافق غلو جماعة ألموت، ولما كانت مسألة الإمامة هي المدار المحوري التي تشكلت حوله الفرق الإسلامية، وجب أن نعرف رؤية الإخوان حول هذه المسألة بالذات لنستطيع فيما بعد تصنيف مذهبهم واكتشاف توجهم السياسي .

ويؤكد الإخوان أن مسألة الإمامة من المسائل التي اختلف فيها المنظرون من العلماء ، كل يدافع عن موقفه وعن وجهة نظره بكل ما أوتي من الحجج والبراهين، و قد أدى هذا الإختلاف إلى صراعات وحروب وإباحة للدماء والأموال "وهي باقية إلى يومنا هذا لم تفصل، بل كل يوم يزداد الخائضون المختلفون فيها خلاف على خلاف،وتتشعب فيها ومنها آراء ومذاهب...". (إخوان الصفا،1992، 305) فهي إذن مسألة مازالت موضع نظر، الأمر الذي دفعهم إلى تقديم تصور بديل معلنين تشيعهم لآل البيت، ففي معرض مخاطبتهم للمشيعين يعلنون أن ما يجمعهم جميعاً هو محبة النبي (ص) وأهل بيته والإيمان بولاية علي بن أبي طالب رضي الله عنه خير الوصيين (إخوان الصفا،68،1992 . 69) ،ولما كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الوريث الشرعي للنبي حسب ما

ترى الشيعة فقد نتج عن ذلك أن انحصرت الإمامة في أحفاده الدين هم الأئمة من بعده ، بحيث كل إمام وصي من بعده وعلي وصي محمد صلى الله عليه وسلم (أمين،1975 ،267).

يرى إخوان الصفا أن الخلاف بين اتجاهين أحدهما يعتقد بأن الإمام يجب أن يكون الأفضل و الأقرب إلى النبي نسباً،ويكون قد ورد نص يمنحه المشروعية ، بينما نلاحظهم يتجنبون الخوض في اعتقاد الرأي الآخر وحين نستعرض رأيهم الذي ورد صريحاً في رسائلهم خصوصاً في الرسالة الجامعة نتبين أن المسكوت عنه هنا هم الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من خلفاء بني أمية وبني العباس ، وبالرغم من ورود ذكر الخلافة الراشدية بنوع من الرضى والقبول إلا أننا نعتقد أن ذلك لم يكن إلا من باب الحنكة السياسية ، لأن إعلان رأيهم الحقيقي سوف يبدو واضحاً حينما يتهمون القرشيين على لسان الحيوان بأنهم بعد وفاة النبي (ص) " ارتدوا وكانوا شاكين منافقين و قتلوا الامة الخيرين الذين هم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة."(إخوان الصفا،1992،456 . 458)

فعلي والأئمة من بعده أوصياء النبي (ص)، أما غيرهم فسالبي "ما ليس لهم بحق "(إخوان الصفا،1992،509) وحين نضع خطاب الإخوان في إطاره التاريخي أي ربطه بالفترة التاريخية التي عاشوا فيها والتي كنا قدرناها بالنصف الثاني من القرن الثالث وبداية القرن الرابع للهجرة،حينها نتبين أن المقصود بالخطاب هم العباسيون،وبالتأكيد لا نحتاج إلى عناء كبير لندرك أن الخطاب موجه أيضا للأمويين على اعتبار أنهم أعداء لعلي والشيعة عموماً ، هذا ما تشهد به المصادر الشيعية ، ولكنه موجه بشكل أساسي ومباشر لحكم العباسيين وإلا بماذا نفسر أنه لم يرد ذكر الأمويين إلا بالتلويح القريب على حد تعبيرهم في معرض حديثهم عما حدث يوم كربلاء تلك المأساة التي اعتبرها البعض بداية تحول حاسمة في الفكر الشيعي ، أي بداية عمقت العداء بين الأمويين والعلويين(إبراهيم حسن،1964،14) ؟

يؤكد رأينا ذلك الخطاب الجدلي الحاد الذي أورده الإخوان على لسان الحيوان موجه لبني العباس الذين جعلوا يظهرون العلوية، وينكلون بهم أشد التنكيل مدعين عليهم بأنهم أولى منهم بالخلافة، وأحق بالطاعة، كل هذا بلا حجة عليهم إلا القهر والغلبة. (إخوان الصفا،1992،359 . 360)إذ يبدوا أن العلويين الذين كانوا يعلقون آمالهم على انتصار الثورة العباسية قد أصيبوا بخيبة موجعة بعدما تبين لهم أن العباسيين لم يكتفوا باضطهادهم والتنكيل بهم، بل لقد ادعوا لأنفسهم الحق و الشرعية بالإمامة عليهم .

لقد كان على الشيعة بعد هذا " الانقلاب " السياسي لدولة الخلافة العباسية أن يواجهوا الإيديولوجيا التي أسس لها خطاب العباسيين بإيديولوجيا مضادة تمنح المشروعية لعلي والأئمة من بعده، الأمر الذي يعني أن الأئمة . من بعد النبي . هم الورثة الشرعيون لميراث النبوة، وحاول العباسيون معارضتهم بنفس إستراتيجيتهم، فعارض

المنصور فكرة "المهدي" و " الفاتح" بفكرة "المهدي العباسي" و "المنصور العباسي"، وقد امتد التنافس بين العلويين والعباسيين إلى درجة الغلو وادعاء ألوهية الأئمة. وقد قالت الراوندية . وهم غلاة العباسيين . بأن الإمامة قد انتقلت بوصية من بن أبي هاشم بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب إلى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس(المسعودي ،1989 ،300) فاستقرت بذلك في أسرة آل العباس فأضفيت صفة الإمام بذلك على أبي العباس أول خلفاء العباسيين(الجابري،2000، 249 - 250).

من هنا نفهم لماذا ورد ذكر أولاد العباس وقد وضعوا موضع الإتهام ليكشفوا . دائماً على لسان الحيوان . رفضهم للمنطق الذي استخدمه أعداؤهم العباسيين ، فميراث النبوة لعلي و لأولاده من بعده يتوارثونها أباً عن جد إلى يوم القيامة. فهل تكفي هذه المعطيات لنعلن عن تشيع إخوان الصفا ؟هل ينبغي أن نتحدث عن الطابع الإسماعيلي لإخوان الصفا أم عن الطابع الأخوي للإسماعيلية ؟ أو بمعنى آخر أيهما يعتبر امتداد للآخر؟

أمام إشكالية كهذه، نجد أنفسنا أمام آراء متعارضة إن لم نقل أنها متناقضة، والحقيقة أنه ليس من السهل الفصل في الموضوع نهائيا وبشكل قطعي إذا لم نفصل في مسألة الأسبقية في الوجود، ذلك أنه من الصعوبة بمكان معرفة أيهما أسس للآخر أو كان انعكاسا له دون معرفة الوجود التاريخي لإخوان الصفا والإسماعيلية، وهي المهمة التي فصلنا فيها قبل قليل، ثم وحتى يكتمل عملنا، نكون مطالبين – في غياب مصادر قريبة من عصر الإخوان – أن نقارن بين النسق الفكري والآليات التي تحكم المذهبين، فنعرف حدود المقاربة بينهما وهل يقومان على نفس العلاقات والمفاهيم والآليات أم أنهما من حيث التركيبة البنيوية يمثلان منظومتين فكريتين مختلفين.

يذهب حسين مروة إلى الاعتقاد بأن إخوان الصفا، ورغم ما يربطهم بالإسماعيلية من تقارب من حيث الأفكار، أي العلاقة بين المبادئ الفلسفية التي تقوم عليها فكرة الإخوان وعقيدتهم والأصول التنظيمية التي تتبعها الإسماعيلية، رغم ذلك فإن العلاقة لا تصل إلى حد التماثل الكامل، فقد عرفت الإسماعيلية بنشاطها وحضورها في التاريخ قبل ظهور جماعة أخوان الصفا بنحو قرن من الزمن(مروة،363،1985 ، 364) ، وقد كان لها تنظيم محكم ونشاط مكناها من الانتقال من مستوى التنظير إلى مستوى العمل الثوري، وكان لها تأثير على الحركات الثورية كالقرامطة منذ القرن الثالث(نسبة إلى إمامهم حمدان قرمط) ، وقد كانت هذه الحيوية والتنظيم والعملية عوامل ساعدت على نجاح الإسماعيليين وفي تحقيق طموح دعوتهم، في إقامة دولتهم أي الدولة الفاطمية.

أما إخوان الصفا كظاهرة فقد كانت إنعكاساً مباشراً للتنظيم المحكم والتجربة الناجحة للحركات الإسماعيلية(مروة ، 1985 ،363 ، 364) ، والتي وضعت أمام الحركات ذات التوجه الثوري نموذجاً للممارسة العملية ، فانعكست بذلك الأصول والمبادئ، الأمر الذي يدفع بهذا التوجه في البحث إلى الاعتقاد بأن لإخوان الصفا وجود مستقل عن الإسماعيلية .

لقد فندنا الرأي القائل بنشأة إخوان الصفا في القرن الرابع، ولكن الذي يهمنا الآن هو النتيجة التي تمخض عنها هذا الرأي من حيث أنه لا ينفي التقارب من حيث الأصول والمبادئ التنظيمية بين الإسماعيلية وجماعة إخوان الصفا، وهي نتيجة لها أبعادها الفلسفية والتاريخية إذا علمنا أن ظهور هذه الجماعة كان قبل هذا التاريخ بقرن أي من القرن الثالث للهجرة.والواقع أن حسين مروة ، لا يجد تفسيراً لما ذكره " ماكدونالد " في كتابه " تطور اللاهواتية الإسلامية " حيث قال هذا الأخير بأن المغول، عندما استولوا على قلعة " ألموت " وجدوها غنية برسائل إخوان الصفا. (مروة ، 1985 ،334)

تسوقنا الاعتراضات السابقة إلى فرض ثاني أقرب إلى منطق العقل والتاريخ؛ فبالرغم من كتاباتهم الحذرة، لم يكن إخوان الصفا جماعة يؤلف بينهم المذهب الشيعي فحسب، بل كانوا جماعة فكرية ذات توجه إسماعيلي(كوربان،1983، 210). هذا ما يؤكده " هنري كوربان " وهو الأمر الذي ذهبت إليه الأبحاث ذات الميول الإسماعيلية والتي تجمع أغلبها على أن الأخوان هم الدعاة الأوائل لمذهبهم ، وهو ما أكده كذلك الدكتور "عبد اللطيف الطيباوي" حين أقر بأن الفلسفة الإسماعيلية جميعها مبثوثة في رسائل أخوان الصفا. والحقيقية أننا لا نجد أمام هذه الآراء إلا ترجيحها لسببين : فجماعة الأخوان ظهرت قبل أن تعرف التنظيمات الإسماعيلية ، أما السبب الثاني فيكمن في التطابق شبه الكامل بين النسقين سواء على مستوى الجهاز المفاهيمي الذي يؤلف الخطابين أو على مستوى الآلية أو الآليات الداخلية التي تحرك عناصرهما أي تلك التي تنتج هذا الخطاب أو ذاك .

إن عقيدة الإخوان الصفا تصل من حيث البنية والأصول حد المطابقة في أغلب آرائهم مع الأصول التنظيمية لما تدعوا إليه الفلسفات الإسماعيلية ، وتكفي المقارنة بين النسق الفكري والجهاز المفاهيمي لكل منهما لكي ندرك هذه الرابطة والتي لا يمكن أن تكون مجرد مماثلة أو تشابه ، إذ تقوم العقيدتان على فكرة التصور الكوسمولوجي لعالم الإنسان ، أي مطابقة نظام العقول ونظام مراتب البشر " في المدينة الفاضلة " أي على اعتبار أن الإنسان عالم صغير والعالم إنسان كبير بتعبير إخوان الصفا(إخوان الصفا،1992، 113) ، وهذه فكرة هرمسية تقوم على المطابقة بين أشكال الوجود لترجع الإختلاف الصادر عن الوحدة (= الله) إلى ما عرف في تاريخ الفلسفة بنظرية الفيض، فتجعل العالم يفيض عن الباري في سلسلة من العقول والإبداعات بدءاً بالإبداع الأول إلى أدنى.

الخاتمة:استنتاجات:من خلال التحليل السابق يمكننا نستنتج دوف غلق لآفاق البحث أن إخوان الصفا و من خلال العمل الموسوعي الضخم الذي أنجزوه يعتبرون بحق المؤلفين لأكبر موسوعة فكرية عربية،موسوعة شملت الفلسفة و الدين و الفنون و العلوم المختلفة، بحيث أن القارىء غير الباحث المختص لا يمكنه إلا أن يعترف بأن

غايتها تنوير الأذهان و تثقيفها،لكن المقاربة الفلسفية لمضامينها و ربطها بالسياقات التاريخية التي نشأت فيها و خلالها، و تحليل الخطاب السياسي الذي تضمنته،يضعنا أمام رؤية نعتقد أنها أقرب إلى المعقولية و والتاريخ السياسي للشعوب، فرسائل إخوان الصفا، وانطلاقا من المنطق الذي تبنيناه، لا تخرج عن الخطاب المؤسس لأيديولوجيا الإمامة التي سخر لها الإسماعيليون كل الأدوات المعرفية و الفلسفية و الدينية، فكانت بالتالي تمهيدا لقيام الدولة الفاطمية، و التي تمثل بالنسبة لهم مرحلة الظهور التي تقابل مرحلة الستر المذكورة في رسائلهم، و إن كانت هذه الأخيرة في ظاهرها لا تهتم بالجانب السياسي إلا في جزء يسير منها، فإنها لا تخلو، رغم ذلك من صفة البرنامج السياسي إلا بالنسبة لغير المختص أو حين نتعامل معها بوصفها حقول معرفية متباينة، بل إنه يمكن الافتراض بأن غياب هذا الجانب أي عدم حضوره بشكل مباشر هو في حد ذاته جزء من "استراتيجية" تمثل هي الأخرى موقفاً سياسياً، له دلالته الأيديولوجية و التاريخية، في زمن اشتد فيه الخناق على الحركات "العلوية" المعارضة.

قائمةالمراجع:

1. المسعودي الحسن بن علي بن الحسين. (1989). مروج الذهب. موفم للنشر الجزائر.
2. اليعقوبي أبو العباس أحمد بن اسحاق . (1995). تاريخ اليعقوبي، بيروت: دار صادر للطباعة والنشر.
3. الطبري محمد بن جرير. (1987). تاريخ الأمم و الملوك، بيروت: دار الكتب العلمية.
4. ابن المقفع، كليلة و دمنة، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع- الجزائر 1998.
5. إخوان الصفا و خلان الوفا. (1992). رسائل إخوان الصفا. موفم للنشر الجزائر.
6. إخوان الصفا وخلان الوفا. (بلا تاريخ). جامعة الجامعة الطبعة الثانية، بيروت: دار مكتبة الحياة.
7. إخوان الصفا، الرسالة الجامعة . تحقيق ذ. مصطفى غالب . دار الأندلس . بيروت الطبعة الثانية 1984.
8. تامر عارف . (1983). ابن سينا في مرابع إخوان الصفا. بيروت: مؤسسة عزالدين للطباعة.
9. إبراهيم حسن حسن . (1964). تاريخ الدولة الفاطمية الطبعة الثالثة، القاهرة . مكتبة النهضة المصرية.
10. أحمد أمين، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي،بيروت – لبنان، الطبعة الحادية عشر1975.

11.علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام،الجزء الثاني ، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثامنة 1996.

12.فاروق عمر. (1985). التاريخ الإسلامي و فكر القرن العشرين الطبعة الثانية، بيروت . دار إقرأ.

13.بروكلمان كارل. (2002). تاريخ الشعوب الإسلامية، الطبعة الخامسة عشر (نبيه فارس، و منير البعلبكي، المترجمون) بيروت: دار العلم للملايين.

14.الجابري محمد عابد. (1990)، بنية العقل العربي، الطبعة الثالثة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

15.الجابري محمد عابد. (2000). العقل السياسي العربي الطبعة الخامسة، الدار البيضاء: دار النشر المغربية.

16.كوربان هنري (1983)، تاريخ الفلسفة الإسلامية، الطبعة الثالثة ،ترجمة نصير مروة و حسن قبيسي،بيروت منشورات عويدات.

17.محمد فريد حجاب، الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا،الهيئة المصرية العامة للكتاب 1982.

18.إسماعيل عبد الرزاق محمود ، إخوان الصفا – رواد التنوير في الفكر العربي، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 1998.

19.عمر فروخ، إخوان الصفا،دار الكتاب العربي–بيرروت،الطبعة الثالثة 1981.

المراجع بالفرنسية:

20-Henri LAOUST, Les SCHISMES dans L'ISLAM, SNED – ALGER ,1979.